

الاستيطان الأوربي و زراعة الكروم بمنطقة سيدي بلعباس بين 1870 - 1954

د.حجازي مصطفى،
جامعة معسكر.

الملخص:

يمثل الاستعمار الفرنسي للجزائر من الناحية التاريخية العامل الأساسي لحالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي التي ورثتها بلادنا غداة استقلالها السياسي، إنها حالة من التخلف الشامل، تمثله حصيلة حتمية لنظام استعماري استيطاني، ونتيجة منطقية لممارسات تعسفية جائرة وتطبيقا لسياسات رأسمالية استغلالية على امتداد الوجود الاستعماري .

تعتبر منطقة سيدي بلعباس إحدى المناطق التي تعرضت بشدة للسياسة الاستيطانية الزراعية، حيث تواجدت بها أكبر كثافة سكانية أوروبية في الجزائر، وشعر سكانها الأصليون بالأشكال الحقيقية للسيطرة الاستعمارية، حيث قام المستوطنون منذ إقامتهم على ضفاف واد مكرة بزرع ونشر الحبوب، وشرعوا أيضا في البحث عن منتجات أخرى أكثر عطاء كالتبغ، القطن والتوت، إلا أنها خيبت آمالهم، مما جعلهم يعودون بقوة إلى القمح الزيتون وخاصة الكروم، وهي المنتجات الزراعية لدول البحر الأبيض المتوسط، وبحث مستوطنون منطقة سيدي بلعباس خلال عدة سنوات عن نظام زراعي يمكن من خلاله الحصول على ثراء، فتوصلوا إلى الاعتماد على منتجين: الحبوب والكروم، خاصة أن هذا الأخير يستطيع مواجهة تقلبات المناخ.

تحول الاقتصاد الجزائري الذي كان اقتصادا زراعيا إلى اقتصاد يعيش على هامش الاقتصاد الرأسمالي، فمصادرة أراضي قبائل بني عامر لصالح المعمرين، وتحويل معظمها إلى زراعة الكروم بعد ذلك بمنطقة سيدي بلعباس، عكست بوضوح السياسة الزراعية التي تهدف إلى التصدير من أجل تحقيق تراكم رأسمال خاص لصالح المعمرين .

لقد تميزت هذه المرحلة بتحويل الزراعة المعيشية إلى زراعة رأسمالية أي مرحلة الانتقال من نمط الإنتاج القديم إلى نمط إنتاج رأسمالي ذي

طابع استعماري وبالتالي الاستيلاء على الأراضي وتحويلها إلى ملكيات فردية رأسمالية.

أدت هذه السياسة إلى حرمان الجزائر من أن تكون لها صناعات متطورة والحيلولة بين أبنائها وبين اكتساب المعرفة التقنية الحديثة وبذلك حكمت على الجزائر بالتخصص في إنتاج المواد الخام وبعض المنتجات الزراعية الموجهة للتصدير. هذه السياسة الكولونيالية جعلت المجتمع الجزائري يعيش أوضاعا اقتصادية واجتماعية مزرية فكانت الجزائر مرتعا لصعوبات لا حلول لها .

Résumé

Le colonisation française de l'Algérie représente un facteur historique responsable de la situation de sous-développement économique, social et culturel qu'a connu le pays le lendemain de son indépendance politique. Il s'agit d'une situation de sous-développement général, qui est la conséquence d'un système colonial, et le résultat logique de pratique arbitraires et injustes.

La région de sidi Bel Abbes est l'une des régions ayant subit la politique de peuplement agricole, où existait la plus grande densité d'européens en Algérie. Dès l'arrivée des colons sur les rives du Oued Mekerra ils ont semé des céréales, et ils ont commencé également la recherche de produits rentables comme le tabac, le coton, et les framboises, mais les résultats étaient décourageant ce qui les a poussé à cultiver le blé, les olives et surtout les vignes.

L'économie Algérienne s'est transformé d'une économie agricole en une économie à la marge de l'économie capitaliste, la confiscation des terres des tribus de Beni Ameer et sa culture en vignes dans la région de Sidi bel Abbes, reflètent clairement sa politique agricole, où elle visait à l'exportation en vue de réaliser une accumulation de capital en faveur des colons.

توطئة :

يعتمد الإنتاج الزراعي على البيانات الطبيعية، فزراعة أي بلد هي نتاج بيئتها. لقد عرف " إيميل فيليكس قوتيي " E. F. Gautier. شمال إفريقيا كما يلي: " هوبلد الأطلس " المغرب، تونس، الجزائر، ليست إلا أقاليم من الأطلس وجميعها يشمل الأطلس كله". تبدوسيدي بلعباس من خلال هذا التعريف كإقليم من الأطلس مغلق بسلسلة من الجبال وتتكون من ثلاث مناطق طبيعية من الشمال إلى الجنوب، الأولى منها سهل سيدي بلعباس وضواحيه والثانية هي منطقة جبلية مشجرة، حيث توجد منطقة

تلاخ كمركز إقتصادي أساسي أما الثالثة فهي السهوب الموجودة بين جبال الضاية والشط الشرقي. فكل منطقة من هذه المناطق لها خصوصيتها، إلا أن الأولى لها أهمية قصوى فيحدها من الشمال والغرب جبال "برقش" (ارتفاع 824 م) وجبال تسالة (1061 م) إذ يقدر ارتفاع سهل سيدي بلعباس ب (500م) عن مستوى سطح البحر، أما المنطقة الثانية فهي منفصلة عن سيدي بلعباس بمرتفعات متوسطة (جبل تتيرة 900 م)، ومنطقة جبلية مشجرة، متوسط ارتفاعها (800م) منقسمة بوادي مكرة الذي يمر على عدة مناطق سكنية بالمنطقة. (: A.N.O.M , 81F/1803 187)

تبلغ مساحة مقاطعة سيدي بلعباس 969000 هكتار، منها 600.000 هكتار تقع شمال مرتفعات الضاية وقابلة للزراعة . (Reutt,G.1947 :04) . ويعرف "أقوستان برنار" Augustin Bernard المنطقة كما يلي: "في بلد قديم أجرد أومغطى فقط بالدوم، إلا أن عمل السكان الجاد والحيوي جعلها من أفضل المناطق الزراعية في إفريقيا" (Augustin, B. : 187)

أما الجنرال لاموريسار "Lamoricière" قائد منطقة الغرب الجزائري فيصف مزايا منطقة سيدي بلعباس كالتالي: "مسافة قصيرة من البحر، اتصالات سهلة مع معسكر من ناحية الشرق، من الغرب مع تلمسان، أين أصبحت الطريق نحو وهران أكثر أمانا...هي حماية أكثر فعالية لتثبيت الاستعمار..سيدي بلعباس هي رأس مال مجموعة بيانات الاستعمار، سيدي بلعباس ضرورية أيضا للسيطرة على أراضي بني عامر الواسعة ولضمان الاتصالات مع تلمسان ومعسكر بين وهران والصحراء". (: A.N.O.M TH//242 p 13)

تعتبر منطقة سيدي بلعباس إحدى المناطق التي تعرضت بشدة للسياسة الاستيطانية الزراعية، حيث استغرقت بها أكبر كثافة سكانية أوروبية في الجزائر، وشعر سكانها الأصليون بالأشكال الحقيقية للسيطرة الاستعمارية.

1 - الشروط الطبيعية والبشرية :

أ - الطبيعية :

يتميز مناخ مقاطعة سيدي بلعباس، بضعف كمية تساقط الأمطار وعدم انتظامها، حيث تتأثر المنطقة بالظروف المناخية الصحراوية من

جهة والبحر من جهة أخرى، فيهب "السيروكو" في فصل الخريف والصقيع الشديد في فصل الربيع. (Reutt ,G.1947 :09)
 إن الجدول التالي يوضح كمية التساقط خلال عشر سنوات مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فيما بين سنتي 1895 و1904 (Isman ,L.1906 :p04)

الشهور	كمية التساقط / ملم	الشهور	كمية التساقط / ملم
جانفي	579,	جويلية	12,
فيفري	254,	أوت	02
مارس	860,	سبتمبر	44,
ابريل	40	أكتوبر	931,
ماي	531,	نوفمبر	447,
جوان	312,	ديسمبر	574,

جدول يمثل كمية التساقط خلال عشر سنوات 1895 – 1904 بمنطقة

سيدي بلعباس

يقع الجزء الكبير من منطقة سيدي بلعباس ضمن الخريطة المطرية الجزائرية بين 400 و500 ملم، إلا أن مجموع تساقطات الأمطار المسجلة في نهاية الأربعينات من القرن العشرين لم تتجاوز 400 ملم، كما تميزت سنة 1944 – 1945 بجفاف استثنائي وتساقط سنوي حدد بـ 213.5 ملم فقط بالنسبة لمنطقة سيدي بلعباس. (Reutt ,G.1947 :06). أما متوسط التساقط خلال عشر سنوات 1937 – 1947م فيوضحه الجدول التالي:

مجموع تساقط الأمطار	كمية تساقط الأمطار / ملم			السنوات
	ماي - جوان - جويلية - أوت	جانفي - فيفري - مارس - أفريل	سبتمبر - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر	
407.7	29.1	134.2	245.4	37 – 38
401.7	26.7	169.4	183.6	38 – 39
252.8	46	174.8	31.4	39 – 40
424	48.2	213.4	161.5	40 – 41
265.3	16.4	157.2	86.6	41 – 42
399	36.7	199.1	164.9	42 – 43
452.6	26.8	122.1	301.7	43 – 44

213.5	09	96.2	100.9	45 - 44
371.2	22.5	218.4	70.5	46 - 45
343.8	92.9	101	149.9	47 - 46

جدول يمثل متوسط التساقط خلال عشر سنوات 1937 - 1947 .

(Reutt ,G.1947 :05)

يعتبر مناخ هذه المنطقة قاس باتجاه الجنوب متميز بنقص التساقط مع عدم انتظام هطول الأمطار، كما يهب السيروكوخمسة عشر يوما في السنة تقريبا خصوصا خلال شهري جويلية وأوت وأحيانا في شهر أفريل مما يؤدي إلى تسجيل خسائر كبيرة في المنتوج الزراعي. وتعرف المنطقة عامل الصقيع القارص لمدة متوسطة تقدر بـ 30 يوما في السنة خصوصا في فصل الشتاء والربيع أحيانا. لقد عرفت منطقة سيدي بلعباس في سنة 1857 صقيعا قويا في شهر جوان أحدث خسائر زراعية كبيرة، وصقيعا في 06 أفريل 1932 بدرجة حرارة قدرت 7.5 تحت الصفر، أما في 11 أفريل 1947م فقد عرفت المنطقة انخفاضا في درجة الحرارة وصلت إلى 07 درجات تحت الصفر، وبصفة عامة فإن درجة حرارة سطح منطقة سيدي بلعباس يتميز بتغيرات كبيرة على مدار السنة.(06: Reutt ,G.1947)

أما من حيث الشبكة الهيدروغرافية، فيملك إقليم سيدي بلعباس شبكة تتوافق مع طابعها المناخي، فمن جهة إن تساقط الأمطار غير منتظم وعملية التبخر هي شديدة، ومن جهة أخرى فإن الأراضي نفاذة عموما، هذه العناصر غير مواتية لإقامة شبكة مائية دائمة، لكنها تؤكد وجود مياه جوفية، وأهم المجاري المائية يوجد "واد مكرة" الذي يأخذ منبعه من رأس الماء، بمنسوبه المتوسطة قدر بـ 2 م³/ثا، لكنه غير منتظم حسب التساقط السنوي ويمر على مجموعة من التجمعات السكانية بالمنطقة، ومن بين روافد واد مكرة نجد "واد سارنو" الذي يرتفع منسوبه في فترة التساقطات الهامة، ويجري بمنطقة "تلاغ". أما المجرى المائي الثالث ويتعلق "بواد سفيون" الذي يعبر منطقة غير مزروعة ليلتحق "بواد ملغيغ" دون أن يلعب دوره المنوط به.(08,09: G.1947)

ب- البشرية :

صنفت الجزائر بين المناطق التي افتقرت إلى الأراضي الزراعية والصلاحية مقارنة بالعنصر البشري الوفير، لقد أصبح الأمر تقليديا

للتمييز بين الزراعة المتقدمة التي تلبى متطلبات الزراعة الحديثة والزراعة التقليدية التي لا تزال تعمل بالوسائل البدائية. (Lebeau, L. 1954 : 10).
انقسم العنصر البشري بمنطقة سيدي بلعباس إلى ثلاث مجموعات خلال الفترة المدروسة:

المستوطنون

يتكون المستوطنون الأوائل من العسكريين القدماء، الذين تمركزوا في المنطقة، فالقلة منهم كانت تملك خبرة زراعية وفلاحية في مناطق البحر الأبيض المتوسط، أما العدد الكبير فهو قادم من باريس، الألزاس واللورين، أو الألب وبعض العائلات جاءت من ألمانيا. كان التكيف مع شغل الزراعة صعبا جدا نتيجة الظروف المناخية القاسية ولكن بعض العائلات استطاعت الاستقرار بسبب منحهم أراضي زراعية مجانا بعدما انتزعت من أصحابها، أما عائلات أخرى فقد بحثوا عن أراضي أكثر خصوبة عبر منطقة سيدي بلعباس، أما الباقي فقد رجع إلى بلدانهم الأصلية. (A.N.O.M : 81F/1803)

قام المستوطنون بمحاولة استصلاح الأراضي الزراعية، لكن في بداية الأمر لم تكن الزراعة تلبى الحاجيات، سواء بسبب المناخ أو أجورها المنخفضة، لكنهم تمكنوا من القضاء على الصعوبات الأولى عن طريق جمعيات المستوطنين الملاك الممولة ببعض الأموال، واسترجعت الزراعة قوتها في شكلها القروي، وأصبح المستوطن يسكن مزرعته ويستغلها مع أبناءه، إلا أن الرفاهية التي جلبت عن طريق الكروم ساعدت في تشكيل نوع آخر من المستوطنين، فقد وضعت الذهنية الجديدة مكانا للفكر المؤسسي، فإلى جانب المستوطن الساكن بمزرعته، نجد المزارع المقيم بالمدينة مهتم ليس فقط بالإنتاج، بل أيضا بحالة السوق وأسعاره مثل الصناعي وهذا حتى يتكيف مع متطلبات الاقتصاد . (Reutt ,G.1947 : 15)

الإطارات الزراعية

كانت العمالة الإسبانية ورقة رابحة من الدرجة الأولى في يد الكولون، فإذا كان رؤساء المؤسسات معظمهم من أصل فرنسي، فإن إطارات الاستثمار في غالب الأحيان من الأسبان "كوميس" Comis، رؤساء ورشات أو عمال متخصصين، ففي سنة 1901 قدر عدد الأسبان في منطقة سيدي بلعباس 15264 مقابل 10887 فرنسي، لقد لعب الأسبان

دورا هاما في رفع من قيمة المنطقة الزراعية، يسكنون المزارع ومرتبطين برب العمل ومستفيدين ماديا. (A.N.O.M : BIB.AOM /20138/1908 : 61)

العامل الزراعي

إن نقص اليد العاملة المتخصصة في منطقة سيدي بلعباس جعل المستوطن في حاجة ماسة إلى العمال الموسمين الذين استقدموا من اسبانيا، المغرب الأقصى والجنوب الجزائري، للعمل في المزارع المنتجة للكروم والأشجار المثمرة. إلا أن ذلك لم يلب الحاجيات المحلية من اليد العاملة المؤهلة، ما أدى بالسلطات الاستعمارية إلى التفكير في إنشاء ما يسمى "بالتعليم الزراعي". (Reutt ,G.1947 :P15)

2- الكروم والاستيطان

قام المستوطنون منذ إقامتهم على ضفاف واد مكرة بزرع ونشر الحبوب، وشرعوا أيضا في البحث عن منتجات أخرى أكثر عطاء كالتبغ، القطن، والتوت إلا أنها خيبت آمالهم، مما جعلهم يعودون بقوة إلى القمح، الزيتون والكروم وهي المنتجات الزراعية لدول البحر الأبيض المتوسط، ويحث مستوطنو منطقة سيدي بلعباس خلال عدة سنوات عن نظام زراعي يمكن من خلاله الحصول على ثراء، فتوصلوا إلى الاعتماد على منتجين: الحبوب والكروم، خاصة أن هذا الأخير يستطيع مواجهة تقلبات التساقط، وينقص من المخاطر الملازمة لزراعة الحبوب تحت تأثير المناخ. (Revue municipale S.B.A 1955, n°1)

تتأقلم الكروم مع مناخ البحر المتوسط، حيث ضمن الزراعات الرئيسية في الجزائر، بعد تشجيع زراعتها من طرف المزارعين القادمين من فرنسا وغزو الفيلوكسيرا لكروم المتروبول.

في سنة 1878م لم تكن الجزائر تملك إلا جزءا صغيرا من الكروم حوالي 20.000 هكتار الذي لا يغطي حتى حاجيات الاستهلاك.

(A.N.O.M 81F/1803 N° 3)

أما سنة 1938م فبلغت مساحة الكروم 400.000 هكتار، أنتجت بين 15 إلى 17 مليون هكل من الخمر وبالتالي جاءت في المرتبة الثالثة عالميا، هذه الثورة الزراعية التي حصلت في 60 سنة، كان لها تأثير كبير على الاستيطان في الجزائر فقد ذكر "جول قويو" Jules Guyot في جريدة Agriculture pratique في 15 جانفي 1880 مايلي: "زراعة الكروم هي

التي تملك القوة الاستعمارية لأن قيمة محاصيلها تسمح لها بتسديد أجرة اليد العاملة المرتفعة مقارنة بالزراعات الأخرى .." (Isnard ,H,1948 :02)

عند بداية سنة 1880 م، وصل الاستيطان إلى آخر أنفاسه فبدأت السلطة المدنية تبحث عن مصدر لتموينه، فظنت أنها تجده في الزراعات المدارية فعرض "كلوزيل" الزراعات التي تثري المستعمرة، كقصب السكر، القطن، البن والكافور، والتي سوف تزدهر بسهولة وتتأقلم في وقت قصير. كما صرح أمام اللجنة الإفريقية بما يلي: "عندما تستصلح المتيجة لا يمكننا زراعة لا الزيتون ولا الكروم، إنما زراعة القطن والتبغ وقصب السكر التي سوف تتجح". (Isnard,H1948 :02)

وعليه سوف تمون السوق الفرنسية وبأسعار مشجعة من قصب السكر، الكافور، القطن والتبغ، وكان للقطن نجاحا كبيرا من سنة 1861 إلى 1865. لقد أثار حماسة المستوطنين ووجدت الزراعة الاستعمارية طريقها وبالتالي فمسألة القطن قد حلت بالنسبة للمستوطنين فهو النبات الذي ينتشر في الجزائر ويثري ويوحد فرنسا. لكن في سنة 1876 اختفت مزارع القطن في مقاطعة الجزائر وقسنطينة، أما في الغرب الجزائري فلم تغطي إلا 204 هكتار، وبالتالي فالتخلي عن زراعة القطن، سجل علاقات فشل نظريات التأقلم والمشروع الذي يؤسس للاستيطان بالجزائر. (Isnard ,H1948 :03)

ماهي أسباب هذه الإخفاق؟ لقد أخطأ أصحاب المشروع في مميزات المناخ الجزائري التي تعرف ليالي برد متكررة طويلة، مميتة للنباتات المدارية، فإذا كان القطن قد لعب دورا لبعض الوقت فذلك يعود لظروف طارئة: الحرب الأهلية الأمريكية التي أزالته المنافسة في السوق الفرنسية. انتقل المستوطن بعد ذلك إلى المحاصيل الصناعية التي تتكيف مع مناخ البحر الأبيض المتوسط واعتقد أنه وجدها في زراعة التبغ، ومرة أخرى كان الحماس غير عقلاني فقد امتد التبغ إلى كل المناطق وبالتالي قيل أن التبغ قد أنقذ الاستيطان، إلا أن في سنة 1860 كان الانهيار وانتهى عهد التبغ. بدأ المستوطنون في البحث عن زراعة صناعية جديدة، فاعتقدوا أنهم اكتشفوها في "الكتان" Lin. تطورت هذه الزراعة ابتداء من 1862، لكن الازدهار كان لوقت قصير بسبب

الافتقار إلى المياه، وافتتاح قناة السويس سهل منافسة الهند، ففي سنة 1872 أصبح الكتان لا يغطي إلا 2660 هكتار في الجزائر، هذه الأشكال في الزراعات الصناعية وضع الاستيطان في خطر. (Isnard,H 04 et 05 :1948)

عندما كان شاهدا على تلك السنوات الرهيبة أعلن "فاي" Veil في 1891 أمام زملاءه بالعرفة التجارية بعناية بما يلي : "تعرفون كيف كانت وضعية الجزائر في سنة 1875 م، الجزائر سوف تضيع منا، إذا كان المورد الوحيد الذي بقي لم يشتغل في وقت قصير، هذا المورد هو الكروم". في هذه الظروف فتح عهد زراعة الكروم، حيث لعبت الفيلوكيسرا دورا في تطوير الكروم الجزائرية، فجاء ذلك في الوقت المناسب من أجل إنقاذ الجزائر من الكارثة، فليس من المبالغة أن نقول أن حشرة الفيلوكيسرا كان لها الأثر البالغ في تطوير هذه الزراعة بالجزائر وبالتالي فإن الكروم من الآن فصاعدا قادرة على تحمل القوة الاستعمارية. وفي الوقت الذي توسعت فيه زراعة الكروم، ارتفع عدد السكان الأوربيين، فمن سنة 1882 إلى 1911 انتقلت مساحة الكروم الجزائرية من 42000 إلى 155000 هكتار أما السكان من 410.000 إلى 780.000 ساكن. (Isnard,H 08 :1948)

كتبت جريدة le vieil Algérien أن في 12 سنة جلبت الكروم 100.000 مستوطن بالجزائر، حيث شهد الاستعمار منذ 1875 زخما كبيرا، وتسير زراعة الكروم في نفس الوقت الذي يتطور فيه تنفيذ المشروع الواسع للاستعمار الرسمي الذي صمم من طرف الجمهورية الثالثة، فمن سنة 1871 إلى سنة 1900، أنشأت الإدارة الاستعمارية حوالي 50.000 عائلة في حوالي 700.000 هكتار. لقد جذبت زراعة الكروم للجزائر المستوطنين الأحرار : العديد من المزارعين الفرنسيين المفلسين الذين نزلوا بالمستعمرة حيث قاموا حسب Leopold Gannerre بالحسابات التالية: "إذا بقيت الكروم 10 سنوات دون أن تمسها الفيلوكيسرا، لدينا الوقت لجمع ثروة هائلة." (Isnard,H 09 :1948)

لقد قام المستوطنون بشراء الأراضي البور، استصلحوا، حرثوا، زرعوا في طرفة عين، جاؤوا لاستنزاف التربة بسرعة فائقة، ثم جمع الثروة والعودة على فرنسا لاستعادة كرومهم المخربة لكنهم مكثوا بالجزائر.

تمركز الاستيطان الليوني Lyon بمقاطعة قسنطينة على طول خليج بجاية وفي سهول عنابة، هؤلاء المستوطنين من الرأسماليين الذين وجدوا جاذبية الاستعمار في زراعة الكروم بالجزائر، كما جلبت الكروم بالجزائر فئة أخرى من المهاجرين خاصة من منطقة "سردينيا". لقد سمحت زراعة الكروم بالتطور العادي للاستيطان الذي نشأ ابتداءً من 1871 مقارنة بزراعة الحبوب، ففي أي مكان وجدت الشروط الطبيعية الملائمة، سهلت التطور السريع للمراكز الجديدة للاستيطان، هذا ما جعل المستوطن في الجزائر يطور هذه الزراعة منذ منتصف القرن التاسع عشر (Chambre d' agriculture d' Oran 1929: 179) هذا ما يوضحه الجدول التالي:

ملاحظات	الإنتاج/هكتار	المساحة /هكتار	الفترة
		4632	1860 - 1851
	77.337	11430	1866 - 1861
الفيلوكيسرا بفرنسا	351.525	30.482	1880 - 1866
	4.019.000	110.042	1890 - 1880
الفيلوكيسرا بالجزائر	5.549.560	154.430	1900 - 1891
	7.000.000	152.000	1910 - 1901
	10.000.000	181.000	1914 - 1911

المصدر (54 : Arrus Rene)

تضاعفت المساحة المزروعة من الكروم ثلاث مرات، ووصلت إلى أكثر من 110.000 هكتار سنة 1890 وبدأت سياسة التعمير من سنة 1870 إلى 1900 تركز في تأسيسها على القمح والكروم، فظهرت المعاملات التجارية العقارية بين الفلاح الجزائري والمستوطن وباع الفلاح الجزائري أرضه للأوربي بسعر منخفض مقارنة ببيع المستوطن أرضه للجزائريين. بين سنتي 1877 و 1898 بلغ متوسط سعر الهكتار من الأراضي عند الأهالي 100 فرنك، بينما بيع الهكتار الأوربي بـ 153 فرنك، أما من 1899 إلى 1904 فقد تم بيعه عند الأهالي بـ 117 فرنك، في المقابل بيع سعر الهكتار الأوربي 185 فرنك. لقد تم اغتصاب 467.367 هكتار من الأراضي الزراعية من الأهالي في أقل من 30 سنة، في حين

انتقل عدد الملاك الأوربيين من 13301 إلى 8942، فأزمة الكروم أدت إلى تسارع عملية تركيز الملكية العقارية التي استفادت منها بالدرجة الأولى الملكيات الواسعة الرأسمالية الزراعية في المتيجة، الصومام، معسكر وسيدي بلعباس فأصبح متوسط المساحة لكل شخص في 1902 7.89 هكتار للأوربي و2.03 هكتار للأهالي. (Arrus R, 1985 :56 et 57)

إن الخصوصيات الطبيعية لمنطقة سيدي بلعباس مزعجة أحيانا، لكنها مقبولة في زراعة الكروم، فقد يستطيع المستوطن دون القيام بعمق مقبول في الأرض أن يضمن إنتاجا وفيرا من الكروم. G., (Reutt 1947 :68)

لم تمتد زراعة الكروم على نطاق واسع بسيدي بلعباس، ويعزى هذا الوضع إلى البرودة السائدة في بعض الأحيان وخصوصا الصقيع المتأخر. لقد اهتم مستوطن واحد بجدية ونجاح هذه الزراعة بالمنطقة في سنة 1858 هو السيد "باستيد" Bastide فقد وصلت مساحة كرومه إلى 16 هكتار منها 04 هكتارات من نوعية "مسكرة" Mouscara و12 هكتار تقريبا نصفها من نوعية Bourgogne ونصف الآخر Bordeaux وجمع في هذه السنة 20 هكل من النبيذ وكان بإمكان المحصول أن يرتفع لولم يحم "ابن أوى" chacal بتدمير الكروم رغم كل الاحتياطات التي قام بها. بدأت زراعة الكروم تتطور شيئا فشيئا فقد بلغت الخطوط المزروعة من طرف المستوطنين بمنطقة سيدي بلعباس ما بين 1854 و1859 كالتالي:

- الكروم المزروعة في 1851 لا تنتج إلا في سنة 1854 مساحتها 07 هكتار و50 آر.

- الكروم المزروعة في 1852 لا تنتج إلا في سنة 1855 مساحتها 10 هكتار و10 آر

- الكروم المزروعة في سنة 1853 لا تنتج إلا في سنة 1856 م مساحتها 09 هكتار و25 آر.

- مجموع الكروم المزروعة في هذه الفترة 26 هـ و85 آر. أما زراعة الكروم عند الأهالي فقد بلغت في جوان 1869 حوالي 0.50 هكتار. (Isman L.1906:09)

تطورت مساحة الكروم في منطقة سيدي بلعباس، حيث بلغت سنة 1900 ما يقدر بـ 12.902 هكتار ثم 14.860 هكتار في سنة 1901 وأنتجت 356.000 هكل من الخمر وأصبحت مساحتها تزداد على حساب

الاستيطان الأوربي و زراعة الكروم بمنطقة سيدي بلعباس... دحجزي مصطفى

الحبوب وارتفعت إلى 15195 هكتار سنة 1902، أما في سنة 1904 فقد وصلت مساحة الكروم إلى 15.455 هكتار. (A.N.O.M : .07:1903). الجدول التالي يمثل توزيع الكروم حسب كل بلدية من خلال أنواع الملكيات لمقاطعة سيدي بلعباس سنة 1904 .

أنواع الملكيات								بلدية
أقل من 50 هكتار		5 إلى 10 هكتار		1 إلى 50 هكتار		50 هكتار أو أكثر		
العدد	المساحة	العدد	المساحة	العدد	المساحة	العدد	المساحة	
84	9113	14	11068	29	685	23	205665	سيدي بلعباس
42	6879	18	14849	23	38048	5	375	سيدي لحسن
26	3285	4	3070	17	30040	3	25970	سيدي خالد
15	3069	16	10850	29	57160	7	619	سيدي علي بوسيدي
30	3419	11	7362	15	36482	6	51799	لمطار
61	13892	17	11490	5	15232	-	-	حاسي زهانة
27	4325	8	5610	13	22280	1	55	بوخنيفيس
66	8842	6	4190	18	37669	5	50536	طايية
30	5771	5	3440	11	33190	6	76015	سفيرف
26	6359	3	25	10	21950	8	653	بلقايد بلعربي
13	3828	8	4845	12	26699	3	308	زرولة
11	1525	2	1875	2	55	5	62725	سيدي إبراهيم
12	4775	14	10225	12	25390	4	24550	سيدي حمادوش
11	2166	7	4870	8	24050	3	407	مصطفى بن براهيم
20	4780	4	29	12	31010	1	51	تسالة
5	22	7	38	3	32	-	-	تلاغ لكص
21	6041	4	24	2	70	1	80	تلاغ مختلطة
47	4299	6	4703	6	11545	-	-	سيدي علي بن

يوب								
تيرة	1	83	3	53.50	2	17	18	22
المجموع	62	760360	230	500895	156	111747	565	96768

المصدر (10): (L) Isman.

إن تواضع نوعية الأراضي، ونقص التساقط جعل من مقاطعة سيدي بلعباس منطقة ذات مردود ضعيف وانخفاض سعر التكلفة، وقد اختلف المردود من ملكية لأخرى، وأحيانا في نفس البلدية، بسبب اختلاف الاهتمام من مالك لأخر، فإنتاج الكروم غير المسقية تتراوح بين 15 و 50 هكل في الهكتار، أما الكروم المسقية فتنتج من 40 إلى 200 هكل، فالمتوسط في الحالة الأولى لا يتجاوز 22 هكل والثاني 60 هكل (Isman, L. 1906:11).

كان من الضروري إعطاء أهمية للكروم المسقية من خلال مردودها وعليه قررت وزارة الفلاحة بعد التشاور مع اللجنة الاستشارية لإدارة الكروم بتاريخ 23 جويلية 1931، الترخيص حتى 15 أوت 1931 بسقي الكروم في المقاطعات التالية: سفيزف، سيدي علي بوسيدي، سيدي إبراهيم، تسالة، بوشبكة، سيدي لحسن، لمطار، بلقايد بلعربي، طابية، حاسي زهانة، سيدي حمادوش، سيدي علي بن يوب، سيدي بلعباس، تيغاليما، يوب وتلاغ (A.N.O.M : 1H/12)

يرتفع مردود الكروم في عدة أجزاء من منطقة سيدي بلعباس، فتتراوح على المنحدرات بين 30 و 35 قنطار من العنب، أما في السهول فيرتفع إلى 80 إلى 100 قنطار، وتوفر الكروم المسقية بين 150 و 200 قنطار كما يقدر سعر كروم سيدي بلعباس بين 1500 و 2000 فرنك. (Pawlowski,A .1913: 12)

الجدول التالي يوضح التغيرات التي عرفت أسعار الهكل من الكروم، وسعر القنطار من العنب منذ سنة 1900 .

السنة	إنتاج الكروم/ هكل	المساحة المطابقة للكروم المنتجة	متوسط سعر الهكل في الملكية /فرنك	متوسط سعر القنطار من العنب / فرنك
1900	212571	8938	12	09
1901	260760	10278	04	05
1902	294218	13353	16	09
1903	261540	14608	25	16

04	06	14820	380383	1904
----	----	-------	--------	------

المصدر: (11) : (L) Isman.

تأثرت زراعة الكروم من حين لآخر بالتأثيرات المناخية، فقد عرفت سنة 1930 هجمات عنيفة لمرض "الميلديو" Mildiou (العفن) حيث اكتشفت متأخرة ولم تعالج كما ينبغي، في نهاية أوت من نفس السنة هبت رياح ساخنة وجافة (36 ° إلى 42 °) أصابت خصوصا الكروم بمنطقة سيدي بلعباس، في بداية شهر سبتمبر ضربت المحاصيل عواصف رعدية ممطرة بالمنطقة الواقعة بين تلاغ وتتييرة أدت إلى خسائر كبيرة في المحاصيل بسبب ترسب الطمي . في سنة 1932 عرفت الكروم بمنطقة سيدي بلعباس خسائر بسبب الصقيع وصلت إلى 150.000 هكل من الخمر، مست هذه الخسائر معظم المراكز الكبرى لزراعة الكروم بالخصوص سيدي خالد، لمطار، سيدي علي بوسيدي، سيدي لحسن، سيدي بلعباس ومكرة المختلطة. في 9 و 10 سبتمبر 1941 هبت عاصفة رعدية شديدة مصحوبة ببرد كبير منطقة سيدي بلعباس تسببت في فيضان المكرة وروافده وخلف أضرارا هامة للمحاصيل الزراعية بمراكز سيدي علي بن يوب حيث تضررت معظم محاصيل كروم الطابية 15 هكتار، بوشبكة من 30 إلى 40 هكتار، سيدي خالد تضرر محاصيل هامة من الخضر وخسائر في العتاد الفلاحي ومخزون الحبوب، أما بسيدي لحسن فقد غطت المياه 10 هكتارات من المحاصيل الزراعية .

(A.N.O.M , 1H/63:1928)

في سنة 1933 وفي غمرة أزمة الكروم قدر السيد "ديلوي" Deloye (مستشار زراعي) سعر التكلفة لدرجة الهكتولتر في سيدي بلعباس بين 03 و 04 فرنك، في هذه الفترة الصعبة لزراعة الكروم، كان سعر الخمر في منطقة الغرب يباع ب 05 فرنك للدرجة مقابل 100 فرنك للقنطار بالنسبة للقمح، فأسعار التكلفة مناسبة لزراعة الكروم في منطقة سيدي بلعباس وهذا بسبب اقتصاد معالجة الأمراض الفطرية، سهولة العمل في الأرض الخفيفة وأخيرا تكاليف الفرس المنخفضة، إلا أن الوضعية تغيرت بسبب انخفاض المردود وارتفاع أسعار التكلفة والتكاليف العامة مع تقدم سن الكروم وضعف الاعتناء بها. (Reutt,G1949:90) الجدول التالي يوضح ذلك :

السنة	المساحة / هكتار	الإنتاج / هكتار	المردود
1933	37.091	1.100.000	30
1934	39.428	1.513.153	38.3
1938	38.667	1.153.712	30
1939	37.876	1.528.934	40
1940	37.492	997.316	26.7
1941	36.950	1.143.297	30.9
1942	36.600	498.268	13.6
1943	35.045	682.182	17.4
1944	32.182	738.263	22.9
1945	34.973	570.618	16.3
1946	33.765	749.700	22.2
1947	33.923	350.988	10.6
1948	32.309	805.355	24.5

المصدر (91): (Reutt (Georges)

نلاحظ من خلال الجدول تدني المردود لحملات 1941، 1942، ، 1944، ، 1946 و 1947 بسبب العوامل السالفة الذكر بالإضافة إلى الظروف المناخية غير الملائمة وضعف التساقط حيث بلغت كميات الأمطار المتساقطة في الفترة 1941- 1942 ما يقدر بـ 265 ملم و 213 ملم في 1944 - 1945 والصقيع في سنة 1947، هذا الانخفاض في الإنتاج في معظم المنطقة وخصوصا في منطقة تلاغ - يوب (Reutt, G1949: 72) وهذا ما يبرزه الجدول التالي :

المرکز	متوسط المردود 1940 - 1945	متوسط المردود في 1947
تلاغ كاملة الصلاحيات	09.6	5.7
تلاغ المختلطة	07	6.2
تيفاليمات	07	02
تتيرة	07	6.6
يوب	07	3.5

المصدر (92): (Reutt(Georges)

ابتداء من سنة 1935 م وصلت زراعة الكروم في حدود إمكانياتها، وبالفعل شكلت الكروم في إطار وقائي الإتحاد الجمركي مع فرنسا فتجارة الخمور الجزائرية ليس لها منفذا إلا مع فرنسا المرتبط بشكل وثيق، وفي فترات الإنتاج الزائد فقد يشعر جانبي البحر المتوسط بالأزمة، وللتغلب عليها قامت السلطات العمومية بإنشاء نظام شديد القسوة بوضع نهاية لزيادة زراعة الكروم . كما بلغ الاستيطان سقفه والدخل الذي يأتي من تصدير المحصول ليس قابلا لزيادة حقيقية . إن تأثير زراعة الكروم على الاستيطان يميل إلى التراجع، والخطر الذي يخشى منه هو تسريع هجرة السكان الأوربيين من الريف، لكن ما هو مؤكد تراجع الكروم خلال الحرب العالمية الثانية فقد خسرت أكثر من 50.000 هكتار بسبب شيخوخة غالبية أجزاء الكروم وبالتالي لم تعد زراعة الكروم قادرة على ممارسة لدورها الاقتصادي الاستطاني كاملا.¹

(Isnard,H 1948 :18 et 19)

شكل انخفاض المردود تهديدا كبيرا على اقتصاد المستغلات الزراعية للكروم وحملة 1946 - 1947 شكلت عجزا لكل منتجي المنطقة بقيمة 250 مليون فرنك. حاولت المنطقة استرجاع قدراتها الإنتاجية لسنة 1934، فكان لا بد من غرس في خمس سنوات أي من 1947 إلى 1952 حوالي 20.000 هكتار منها 7000 هكتار لتعويض الاقتلاع الذي تم منذ 1934 و 13000 هكتار لتعويض الكروم المسنة، فكان من الضروري إتباع وتيرة غرس تقدر ب 4000 هكتار في السنة، فقام أصحاب المشتلات pépiniéristes في المنطقة بجهود مكثفة ونسقوا جهودهم في سنة 1948م و 1949 لبلوغ قمة الإنتاج التي تقابل 1500 هكتار من الغرس المحقق بوسائلهم الخاصة. (Reutt,G1948:73)

بين سنتي 1946 و 1949 غرست مساحات واسعة حيث قدرت ب 3000 هكتار في 355 مستغلة وذلك بسبب المجهودات الجبارة التي قام بها المزارعون لتحسين وضعية زراعة الكروم، إلا أن بعد سنة 1949م بدأت وتيرة الغرس في تراجع فبدلا من غرس 20.000 هكتار بين سنتي 1947 - 1952 لم يتم غرس إلا 12000 هكتار تقريبا وابتداء من هذه الفترة ستخف زراعة الكروم وتستقر بين 25 و 30.000 هكتار في سنة 1952 أحصت منطقة سيدي بلعباس مايلي : 18 إلى 20000 هكتار من الكروم

المنتجة 04 إلى 5000 هكتار كروم حديثة الفرس . 08 إلى 10.000 هكتار كروم مسنة أو التي يمكن استبدالها.وعليه في 10 سنوات (1938- 1947) انخفضت مساحة الكروم من 39000 هكتار إلى 33000 هكتار، ومن سنة 1947 إلى 1952 تناقصت بين 8000 و10.000 هكتار ففي فترة 15 سنة ضيعت مقاطعة سيدي بلعباس ثلث كرومها تقريبا. (Reutt, G1948 :94)

خاتمة

إن الاقتصاد الجزائري الذي كان اقتصادا زراعيا تحول إلى اقتصاد يعيش على هامش الاقتصاد الرأسمالي، فمصادرة أراضي قبائل بني عامر لصالح المعمارين، وتحويل معظمها إلى زراعة الكروم بمنطقة سيدي بلعباس، تعكس بوضوح السياسة الزراعية المتبعة من طرف الإدارة الاستعمارية التي تهدف إلى تلبية الحاجيات الأساسية لسوق الجزائر بقدر ما كانت تهدف إلى التصدير من أجل تحقيق تراكم رأسمال خاص لصالح المعمارين . لقد تركز رأس المال الزراعي بأيدي عدد قليل من الملاكين الأوربيين وزيادة المساحات المخصصة لزراعة الكروم وذلك بعد دخول الشركات الرأسمالية هذا الميدان من الإنتاج الزراعي، ، فمثلت الخمور 34% من قيمة الصادرات كلها .

أدت هذه السياسة إلى حرمان الجزائر من أن تكون لها صناعات متطورة والحيولة بين أبنائها وبين اكتساب المعرفة التقنية الحديثة وبذلك حكمت على الجزائر بالتخصص في إنتاج المواد الخام وبعض المنتجات الزراعية الموجهة للتصدير.هذه السياسة الكولونيالية جعلت المجتمع الجزائري يعيش أوضاعا اقتصادية واجتماعية مزرية فكانت الجزائر مرتعا لصعوبات لا حلول لها، وانعدام أي سياسة اقتصادية للمستقبل جعل الكثير يتوقع تفاقم الأزمة التي أصبحت جد مأساوية ما أدى إلى ارتفاع الضغط بين المجتمع الأوربي والمجتمع الجزائري .

المصادر والمراجع

2 الأرشفة :

- A.N.O.M(Archives nationales d'Outre-Mer) : 81F/1803 Reutt George : Aspects et réalités de l'Algérie agricole, la région de Sidi Bel Abbas
- A.N.O.M: BIB.AOM /20138/1908 sur le peuplement espagnole en Oranie.
- A.N.O.M: BIB.AOM B//4928 : Sidi Bel Abbés. notice sommaire G.G.A Alger J.torrent 1903

- A.N.O.M: 1 H/12 : Sur la viticulture (irrigation) Chambre d'agriculture d'Oran, Novembre 1929, P.V des séances Oran Imp. heintz Frères, 1929.
- A.N.O.M: 1 H 63 : Exposé de la situation générale de l'Algérie ,1928 et 1938.

2. المراجع :

- Arrus , (René). 1985 L'eau en Algérie de l'impérialisme au développement **1830** – 1962. Alger OPU +PU Grenoble.
- Augustin Bernard : Afrique septentrionale et occidental géographie universelle tome XI première partie.
- Augustin (Bernard): Afrique septentrionale et occidentale, géographie universelle tome XI première partie.
- Djarbal(Daho) : Processus de colonisation et évolution de la propriété foncière dans les plaines intérieures de l'Oranie(sud Mascara et Sidi Bel Abbés 1850-1920),thèse de 3eme cycle .
- Isman, (L) .Essai d'une monographie du vignoble de l'arrondissement de Sidi Bel –Abbés Oran imp. Paul Payan,1906 .
- Isnard, (H). la viticulture et la colonisation de l'Algérie, Alger publication du centre d'étude économiques et sociales de l'Afrique française,1948.
- -Lebeau, (Louis).**1954** l'agriculture Algérienne .Alger. Baconnier imprimeur .
- Reutt,(Georges). La région agricole de Sidi Bel Abbés, Oran imp. Heintz frères 1949
- Reutt,(Georges)..Quelques aspects de l'économie rural de l'arrondissement de Sidi Bel Abbés, , document dactylographe 1947.
- Pawlowski,(Auguste) .. Une enquête en Algérie : l'Algérie économique. Paris imprimerie spéciale de l'information1913.
- Revue municipale de Sidi Bel Abbes N°1. septembre -octobre 1955.